ملامح عصرية

obeikandl.com

كأنه لايكفى ما ترتكبه السيارات من مجازر وما تأكله من آلاف الضحايا كل يوم حتى يضيفون إليها اختراعاً شيطانياً جديداً هو السيارة المفخخة، لتصبح السيارة أكثر أدوات العصر فتكاً وتنكيلاً بالإنسان وتحقق رقماً قياسيّا فى قوتها التخريبية يفوق قوة الأسلحة والمعدات الحربية المصنوعة للسحق والمحق والدمار.

وبقدر ما قدمت السيارة من خدمات لإنسان هذا العصر وما أسهمت فى حله من مشاكل، فقد أضافت إليه مشاكل جديدة لاحصر لها، ويكفى أن يدخل الواحد هنا بسيارته زحام المدينة لتنطلق فى رأسه عشرات الكوابيس بدءاً من تفاديه التصادم بسيارة أخرى وتجنب الارتطام بالكتل البشرية التى تعبر الطريق إلى كابوس البحث عن مكان لوقوفها.

وبرغم الكوارث الناجمة عن هذا الاختراع، فقد أضحت السيارة محوراً أساسياً من المحاور التى ترتكز عليها حياتنا ورمزاً من رموز عصر السرعة والميكنة والتلوث.

إن أول شىء يحرص الواحد منا على اقتنائه هو هذه البهيمة الحديدية، وما أن تحقق لنفسك دخلاً يكفى بالكاد لشرائها حتى تترك كل شىء ، وتهمل كل ما تحتاجه أمك من أدوية وما يطالبك به أصحاب دكاكين البقالة والحلاقة من ديون، وتذهب راكضاً إلى وكيل السيارات لدفع القسط الأول من ثمنها، وتقف أمام الوكالة رافعاً رأسك إلى السماء، مالئاً رئتيك بالهواء، شاعراً بالفخر والهناء وكأنك حققت أعظم إنجاز فى حياتك، لقد أصبحت لديك الآن سيارة تعيد إليك كرامتك المسفوحة على أبواب الحافلات وأرصفة القطارات ومواقف سيارات الأجرة، وصار عليك أن

تتعامل مع الناس بأسلوب جديد يليق بإنسان دفع القسط الأول من ثمن السيارة، ولكن هذا الزهو سرعان ما يتبدد ويتبخر فى الهواء عندما تكتشف أن حياتك قد تحولت إلى ارتهان كامل لهذه السيارة. فأنت تشقى وتتعب وتأتى بنقود لاتستطيع استخدامها أو الاستفادة منها لأنها سوف تذهب كاملة لسداد أقساط السيارة وشراء وقودها وإصلاح ما يلحقها من عطب والإنفاق على ما تجلبه إليك من ضرائب ومخالفات وتأمينات. وإذا كنت سعيد الحظ ونجوت من حادث أو مشاجرة تؤدى بك إلى السجن أو المستشفى، فسوف تكتشف أن مسيرة الإنفاق لاتنتهى ولاتتوقف، لقد أكملت سداد الأقساط ولكن مصاريف السيارة تزداد بسبب القدم والاستهلاك، ومشاوير زياراتها إلى ورش التصليح تتكاثر يوماً بعد يوم إلى أن تصل إلى الحد الذى يوجب رميها وشراء سيارة أخرى بدلاً منها لتعود من جديد إلى الدوران فى ذات الحلقة المفرغة التى لاتنتهى.

حتى إذا ما تقدم بك العمر كثيراً وازداد دخلك قليلاً بحيث صار بإمكانك أن تجد فائضاً تنفقه على شراء المجلات الطبية التى صرت شغوفاً بالاطلاع عليها بعد أن ابتليت بالعلل والأمراض التى كانت السيارة من أهم أسبابها، ظهر لك طفل بلغ سن الفطام وجاء يطلب هو الآخر سيارة يمارى بها غيره من أطفال، ولأنه مازال لم يتعلم النطق فأنت تظنه يريد لعبة يلعب بها، وما أن تشتريها له حتى يرمى بها فى وجهك ساخراً، ضاحكاً من غفلتك وغشامتك لأنك لاتعرف أنهم أباحوا رخص القيادة لكل من بلغ سن الفطام، وتزداد دهشتك عندما تعرف أنه يفقه فى أنواع السيارات أكثر منك لأنه كان يتلقى فى بطن أمه دروساً خصوصية عن أشكالها وموديلاتها وأنه أحضر كراساً من كراريس الدعاية التى تنشرها الشركات ليشير عليك بالسيارة التى يريدها محدداً طرازها ولونها وقوة محركها، مشترطاً بأن تأتى

كاملة لاينقصها التكييف ولارادیو الهای فای ولا السقف المتحرك. وتظن أن سقف الكون هو الذى يتحرك الآن وأن القيامة سوف تقوم قريباً وأن عطباً قد أصاب الدنيا حتى جعل طفلاً فى سنه يطلب سيارة قبل أن يتعلم النطق. ثم تزول دهشتك عندما تخرج إلى الشارع وتكتشف أن أطفالاً مازالوا يرتدون «حفاظاتهم» ويضعون المراضع فى أفواههم يقودون السيارات من كل شكل ولون ويملأون الدنيا زحاماً وضجيجاً.

***

بمثل ما تزحف العمارات على القرى لتعيد تشكيلها وتمحو خصوصيتها وتمنحها طابعاً يتفق ويتشابه مع قرى العالم الأخرى، فهى تزحف أيضاً على الأحياء السكنية القديمة المكونة من بيوت أرضية داخل المدن لكى تقضى على مالديها من تميّز وما تضمه من مساحات خضراء، ولكى تصبح هذه الصناديق الإسمنتية المهولة إحدى أهم علامات هذا الزمان، وتأتى «الشقة» التى صارت تعنى فى أغلب لغات العالم معادلاً للبيت، لتقدم لعالمنا نسقاً دوليّا للبيت العصرى، وسواء كنت فى الشرق أو الغرب، فى أقصى شمال الكرة الأرضية أو جنوبها، فإن السكن الغالب لبنى البشر أصبح هذه الشقة التى تتشابه فى شكلها ومحتوياتها وهندستها مع أية شقة أخرى، غرفة استقبال تضم صالوناً وتلفازاً وأدوات إكسسوار أخرى، أوانٍ أو لوحات أو كتب أو أطباق، فهذه الأدوات لا تختلف من شقة إلى أخرى إلا بقدر اختلاف حالات اليسر أو العسر، وفى مكان ما طاولة للأكل صارت توحد أسلوبنا فى تناول الطعام، وبجوارها مطبخ مجهز بذات التجهيزات التى نجدها فى كل قرية أو مدينة، وثلاجة تحتوى على طعام معلب يتشارك جميع أهل الأرض فى استهلاكه. ويأتى الليل فنهجع إلى غرف نوم تكاد تكون متشابهة فى كل بلاد الدنيا، وبجوار رؤوسنا مذياع ينقل لنا حدثاً دوليّا

نشترك جميعاً فى سماعه، ويكون موضوعاً فى صباح اليوم التالى لتعليقاتنا وأحاديثنا مع الأصدقاء، ويأتى الصباح فنرتدى ملابس تكاد تكون متشابهة ونضع على وجوهنا ماء الكولونيا الذى تصدره باريس إلى كل الشعوب، وننظر إلى ذات الساعة السويسرية التى تزين معاصم ملايين البشر فى أصقاع الأرض بمثل ما تزين معصمنا، ونركب ونحن فى قرية إفريقية سيارة هى ذاتها التى يركبها مواطن فى الهند أو اليابان أو برمودا، ونمر بمحطة وقود هى ذاتها التى يمر بها كل مواطن آخر فى تلك البلاد، ونتبادل مع عاملها ذات الكلمات التى يتبادلها مع ذاك المواطن، ونذهب إلى مكتبنا فنستخدم مصعداً هو ذاته الذى تستخدمه كل العمائر فى عالمنا، ونجلس إلى مكتب فوقه جهاز الهاتف الموصول بكل الهواتف فى الكرة الأرضية، وبجوارنا فى الغرفة جهاز التلكس تدق عليه فتاة فى طوكيو فنسمع دقات أصابعها فوقه ونحن فى مكتبنا بالقرن الإفريقى، ونذهب فى تعاملنا اليومى إلى مكتب أو مصرف أو سفارة أو وكالة أو عيادة فنجدها تستعمل أسلوبًا واحداً فى كل بلاد الدنيا وتعتمد ذات النماذج وتستخدم ذات المراجع والجداول وتتبع نظاماً موحداً فى تعاملها مع زبائنها فى كل بلاد الدنيا.

ونكتشف أثناء ذلك كله أن حدوداً كثيرة قد تهاوت بين سكان العالم بفضل مكتسبات العصر وإنجازاته الحديثة، وأن البشر صاروا يملكون من الروابط والأواصر ما يجعلهم أشبه بسكان قرية واحدة، ونتساءل إذا ما كان هذا التوافق فى أنماط الحياة التى نحياها وهذا التطابق فى ما نشاهده ونسمعه ونقرأه ونستعمله ونرتديه وهذا التشابه فى أساليب العمل والعلم والسفر والنوم واليقظة سيتيح بالضرورة مناخاً جديداً يوحد رؤيتنا لمشاكل العالم ويؤكد انتماءنا للأسرة البشرية ويربى فى نفوسنا ذلك المواطن العالمى الذى يؤمن بأن العالم قريته.

هل سيواكب هذا التطور فى التقنيات وأساليب المعيشة تطوراً فى المفاهيم والأفكار والمعتقدات والسلوك، وهل نستطيع بفضل هذه الآفاق الجديدة التى أتاحها لنا العصر أن نتجاوز ترسبات الماضى الذى يحفل بعوامل التفرقة والانقسام، ونصنع متحدين متكاتفين عالماً ينعم بالرخاء والأمن والسلام؟

هل سيحدث ذلك، أم ستظل هذه الأفكار، برغم كل هذا التقارب والتوافق بين البشر، مجرد أحلام تنتقل من جيل إلى جيل دون أن يتاح لها فرصة التحول إلى وقائع وحقائق؟

***

إنه رجل ناجح بمقاييس النجاح هذه الأيام.

يرتدى ألوانه ويمضى مختالاً بين الناس، متألقاً، متأنقاً، مزهواً بهذا المركز الوظيفى الخطير الذى يحتله، سعيداً بهذه الحفاوة التى يقابله بها الحجاب والسعاة على أبواب إدارته، والتحية التى يزفه بها أصحاب الحاجات فى الطريق من سيارته إلى مكتبه.

يرتاد المنتديات، ويقابل الصحفيين، ويقف خطيبا فوق المنابر، فيستعير صوتاً غير صوته، وحنجرة ليست حنجرته، ويتكلم بلسان غير لسانه، ويقول كلاماً مرصوفاً جميلاً لكنه ليس كلامه، وإنما كلام الوظيفة، ورأى المؤسسة التى يخدمها، ورأى رئيسة فى العمل الذى أهداه هذه الوظيفة.

ولكن

أين تنتهى المؤسسة ويبدأ الإنسان؟

أين تنتهى الأقنعة وتبدأ القناعات؟

أين ينتهى كلام رئيسه فى العمل ويبدأ كلامه هو؟

أين ينتهى كلام الناطق الرسمى ويبدأ كلام الناطق الشخصى؟

لقد اختفت من حياته الحدود بين كل هذه الأشياء، لقد استخدم الرجل كل مهاراته لكى يلعب دوره جيداً، واندمج اندماجاً كاملاً فى هذه الشخصية التى يمثلها حتى نسى صوته ووجهه ولسانه.

نسى قلبه وعقله وضميره.

وأذاب شخصيته فى شخصية الوظيفة فلم يعد لها وجود أو حضور.

لقد كانت له آراء وأفكار وأشياء يؤمن بها لاتتفق جميعها مع ما تقوله الجريدة الرسمية.

ولكن هذه الأشياء كان يقولها عندما كان يجلس على مقاهى الرصيف مع بسطاء الناس، وعندما انتقل من المقهى إلى هذاالمركز الوظيفى، اجتهد الرجل فى طمس وإخفاء كل تلك الآراء والأفكار التى لم تعد تخدم أغراضه، أهال عليها التراب وغطاها باليابس من الأعشاب كمن يغطى آثار جريمة يخشى أن يكتشفها الناس.

لبس أرديته وألوانه الجديدة وإذا تغيرت السياسة تغير معها وإذا سمع تعليقاً فى الإذاعة يخالف الرأى الذى قاله منذ دقيقة واحدة أسرع إلى قول كلام جديد يتفق مع تعليق الإذاعة.

يحمل فى جيبه مجموعة من الشعارات والعبارات الجاهزة التى اقتبسها من افتتاحيات الصحيفة الرسمية، والتزم بها، لايحيد عنها ولايضيف إليها ولاينتقص منها، فهو مثال الوفاء والولاء والطاعة والإخلاص، لايؤمن بالاجتهاد أو الخروج على النص أو ارتجال الكلمات التى لم يقلها المؤلف.

والسؤال الذى أحب أن أقف عنده اليوم هو إلى أى مدى يستطيع أى إنسان فى الكون أن يحمل مثل هذ العبء الثقيل ويمضى متنكراً لذاته ماسخاً شخصيته الأصلية وناقلاً فوق قلبه وضميره ووجدانه ولسانه أفكاراً وآراء تتناقض مع آرائه وأفكاره وشخصية أخرى بديلة لشخصيته الحقيقية.

وإذا كان بـإمكان هذا الإنسان أن يكذب على الآخـرين إلى مالا نهـاية، فإلى أى مدى يستطيع أن يكذب على نفسه، أو يمتنع عن الاستماع إلى أى نداء داخلى يتصاعد من عقله وقلبه ووجدانه؟

إنه رجل ناجح بمقاييس النجاح هذه الأيام.

يرتدى ألوانه ويمـضى مختـالاً بين الناس، متـألقاً، متـأنقاً، مـزهواً بهذا المركز الـوظيفى الخطيـر الذى يحتله، سـعيـداً بهذه الحفـاوة التى يقابلـه بها الحجاب والسعاة على أبواب مكتبه.

ولكن

هل يستحق نجاحاً كهذا النجاح ثمنًا كهذا الثمن؟

***

سوف يكون غـريباً أن نجـد بائعاً فى السـوق يرفع عقـيرته داعـياً الناس لشـراء التفـاح الذى يبيـعه ثم نكتـشف عندما نذهب إليـه أن ما يـبيعـه هو البصل. وإذا وجدنا مثل هذا البائع فسوف نعتبره رجلاً عبيطاً أو مجنوناً لأنه يقوم بالدعاية لبضاعة لايملكها ويبيع بضاعة يخجل من المناداة عليها.

ولكن مـاذا نعتـبر أولئك الناس الذيـن يدخلون أسواق الفكر والثـقافـة والسياسة ويرفعون شعارات لايطبـقونها وإنما يطبقون عكسها وينادون على بضاعة لايبيعونها وإنما يبيعون شيئاً مخالفاً لها. إننى لا أرى فرقاً كبيراً بينهم وبين ذلك البـائع الذى ظن أنه بمناداته على التفـاح سوف يضـمن جمـهوراً لشراء البصل، الفرق الوحيد بينهم وبينه، أن بـائع الخضار أو الفاكهة سوف يكشف الناس أمره ويمتنعون عن شراء بضاعـته، بينما يأخذ تجار الشعارات وقتاً قبل أن يكشف الناس كذبهم وغشهم.

ولاشك أن تجار الشعارات أكثـر مكراً ودهاء من صاحب عربة الخضار، فهم عندمـا يبيعـون البصل باسم التـفاح يلجأون إلى كل الحـيل والأساليب

لإخفاء غشهم، إنهم يعبئون البصل فى صناديق رسم فوقها التفاح ويتفننون فى وضع الأغلفة التى تخبئ شكله ورائحته عندما يبيعونه إلينا بحيث لانكتشف أمره إلا بعد أن نكون قد اشترياه منهم ودفعنا لهم الثمن ووقعنا ضحية غشهم واحتيالهم. والأغرب من كل هذا أنه مع اكتشاف الناس لغشهم وخداعهم يأتون مرة أخرى إلى السوق ويقفون فى ذات المكان ويضعون أمامهم البصل الذين يخبئونه فى صناديق التفاح ويرفعون عقيرتهم بمناداة من يبتغى شراءه. معتمدين على أن هناك دائماً إنساناً غافلاً يأتى إلى السوق لأول مرة لايدرى شيئاً عن لعبتهم وسوف ينطلى عليه خداعهم. ومهما كان عدد الناس الذين كشفوا أمرهم كبيراً، فإن هناك دائماً زبوناً جديداً لبضائعهم، تساعدهم فى ذلك عوامل كثيرة من أهمها أن هذه الأسواق لاتحكمها القوانين التى تعاقب الخادعين وتحمى المخدوعين فانتشر فيها الدجل والكذب والغش والتزوير دون حسيب أو رقيب. وما يجب أن يطالب به ضحايا تجار الشعارات هو أن تطبق القوانين التى تحكم أسواق الفاكهة والخضار على أسواق الفكر والثقافة والسياسة بحيث يمنع القانون بائع البصل أن يسميه تفاحاً ويمنع بائع التفاح أن يسميه بصلاً، وسوف لن يتضرر كثيراً هؤلاء التجار، فنحن بقدر حاجتنا إلى التفاح نحتاج أيضاً إلى البصل الذى سوف نشتريه منهم ولكن بثمن أرخص كثيراً من ذلك الثمن الذى طالبونا بدفعه عندما سموه تفاحاً. مع الاعتذار الشديد لكل تجار الخضار.

***

غالبا ما تعطينا المدن الكبيرة انطباعاً خاطئاً عن الخصائص والشعوب والأوطان التى تنتمى إليها. بدليل ما أن ننتقل خارج هذه المدن ونلتقى بأبناء ذلك الشعب فى القرى والأرياف والمدن الداخلية الصغيرة حتى نخرج

بانطباع يتناقض مع الانطباع الذى أعطته لنا المدن الكبيرة.

ونكتشف أن لندن مثلاً لاتصلح أن تكون معياراً للحكم على سلوك وخصائص وطباع أبناء الجزر البريطانية، وكذلك الأمر مع باريس أو روما أو موسكو أو غيرها من مدن الدنيا. وبرغم أن هذه العواصم العالمية تحتوى أخلاطاً من البشر الذين يأتون إليها من كل بقاع الأرض ويشكلون فى بعض مناطقها نسبة تفوق نسبة أهل البلاد الأصليين، فلا أعتقد أن هذا هو السبب فى تزويدنا بالانطباعات الخاطئة، لأن انطباعاً مثل هذا يمكن أن نخرج به حتى ونحن نزور مدينة داخلية كبيرة تزدحم بسكانها من أهل البلاد ولاعلاقة لها بالسياحة أو التجارة الخارجية أو الجاليات الأجنبية. إن القضية أولاً وأخيراً هى قضية هذا الزحام الذى صار يفرض على سلوك الناس أخلاقيات أخرى يتعاملون بها ليست أخلاقياتهم وإنما أخلاقيات صنعها العصر الحديث وأعطاها طابعًا عامًا تكاد تشترك فيه كل مراكز الكثافة السكانية فى الدنيا. يشتد التنافس بين الناس وتقوى وتيرة الصراع، وينتشر أسلوب المقايضة والمنافع المتبادلة، قضاء مصلحة لك بقضاء مصلحة منك، أشترى لك كأساً من الليمون لتعزمنى على قدح من القهوة، كل شىء له ثمن، وكل شىء له مقابل، حتى الوقت له ثمنه فى حمى هذا التسابق والفوز بمكان أكثر تقدماً بين الصفوف، إن هذا الذى يجرى ليلحق بالقطار قد لايستطيع أن يمنحك ما تريده من وقت وأنت تسأل عن موقع العيادة التى تبحث عنها، حتى لو رآك تنزف دماً فهو لايستطيع شيئاً أكثر من أن يشير عليك باكتراء سيارة أجرة تقلك إلى ذلك المكان، وأن عليك أن تشترى مشورة كهذه بالمال، وإذا أردت دليلاً يقودك فى جولاتك فهو أيضاً موجود يريد ثمناً وحتى العيادة التى تذهب إليها لإسعافك تريد مالاً هى الأخرى، وبالمال سوف تجد من يؤانسك ويرافقك ويقضى معك سهرتك

وهو ينظر إلى ساعته لأن لكل دقيقة ثمنها، أما بغير ذلك فإنه سيكون متعذراً على سائح مثلك إنشاء العلاقات أو الالتقاء بالمناطق الدافئة فى قلوب الناس من رجال ونساء، لأنها مناطق بعيدة وصعبة المنال بعكس ما يحدث فى القرى وخارج هذه المدن الكبيرة حيث تختفى هذه الضغوط والالتزامات التى يفرضها الزحام وحيث لايكتفى الإنسان الذى تسأله عن مكان ما بالإشارة إلى الطريق الذى يقوده إليه وإنما يرافقك بنفسه إلى ذلك المكان وقد تكون مناسبة لإنشاء صداقة يظهر لك خلالها شيئاً من كرم أهل تلك القرى واهتمامهم بالغرباء.

الزحام إذن هو العلة وكلما ازداد الزحام كلما تناقصت مساحة المودة والتراحم بين الناس، ولسنا بحاجة إلى أن نذهب إلى عواصم العالم الكبيرة حتى نصل إلى هذه النتيجة، فهى ماثلة أمامنا فى المدن التى نقيم بها أو ننتمى إليها، فالفرق يبقى شاسعاً بين أسلوب التعامل الذى نلقاه لدى أهلنا فى القرى والأرياف وما ينشأ هناك من تراحم وتواصل بين الناس، وبين مايسود علاقاتنا فى المدن من شد وجذب وتوتر وأزمات، وإذا كنا نسمع من أهلنا عن تلك الحكايات التى تتحدث عن آباء لنا وجدود كانوا لايتناولون طعام العشاء إلا إذا ذهبوا إلى الجامع يبحثون عن غريب يستضيفونه على موائدهم، فقد بات مثل هذا الحديث فى مدننا العصرية ضرباً من الخرافات والأساطير، إنه الزحام مرة أخرى يصنع أخلاقاً جديدة لاعلاقة لها بما عرفناه من تقاليد الكرم والضيافة والاحتفاء بالغرباء.

ولأن العالم يزداد مع الأيام ازدحاماً فإن أخلاقيات التوادد والتراحم سوف تزداد مع الأيام ندرة وابتعاداً.

***

فى حين تنشئ كل فئات المجتمع الروابط والاتحادات والنقابات التى

تنظم صفوفها وتدافع عن حقوقها وتحقق لها المكتسبات عاماً بعد عام، فإن هناك فئة من البشر موجودة بيننا منذ أن وجد البناء والعمران دون أن تفلح فى إنشاء نقابة أو رابطة تحقق أدنى مستوى من التنظيم لأصحابها، فبقيت فريسة سهلة للابتزاز والاستغلال، هى فئة الباحثين عن سكن.

تكبر المدن وتزداد اتساعاً وازدحاماً بالسكان وتتفنن شركات البناء فى إشادة العمائر والبنايات التى تطاول السحاب، ولكن فئة الباحثين عن سكن لا تتأثر بكل هذا التقدم والتعمير، فهى تظل موجودة على الدوام، لاتتناقص وإنما تزداد، يطوف أهلها أحياء المدن الكبيرة ويتسكعون عبر شوارعها الخلفية باحثين عن أية نافذة مغلقة فلعلها تمثل أملاً فى بيت يسكنونه، ويترصدون للبنايات التى فى طور الإنشاء علهم يجدون مقاولاً يقبل منهم عربوناً لشقة يكترونها، وتنشأ آلاف المكاتب والشركات التى تتاجر بأزمتهم وتحقق الأرباح الطائلة من وراء معاناتهم ومحنتهم، دون أن تجد مشكلتهم حلاً نهائيًا، ولن تجد، فهى ستبقى ما بقيت فى الدنيا أبنية وعمارات، وستبقى هذه الفئة دائمة التجدد والتغيير ما أن يخرج منها إنسان وينضم إلى دنيا الساكنين الهانئين حتى يأتى إنسان آخر يحمل قلقه ومعاناته ويعلق هو الآخر أبصاره بالنوافذ والشرفات باحثاً عن بيت يأويه.

وسر إشفاقى على هذه الفئة وغيرتى على حقوقها الضائعة، أننى أحد المنتمين الدائمين إليها، وما أن أخرج منها بضعة أشهر أو أعوام حتى أعود إليها مرة أخرى، وكأنها صارت إدماناً لا أبرأ منه، ولذلك فقد نبتت فى ذهنى فكرة أن ننشئ جمعية أو نقابة تنظم صفوفنا وتتولى الدفاع عن حقوقنا وتناضل فى سبيل توفير شروط أفضل ندخل بها الصراع مع أصحاب العقارات والأملاك وتجار المحن والأزمات من أصحاب الوكالات والدكاكين، ترفع عنا الضيم، وتحمى أهل فئتنا من الاستغلال والابتزاز.

يدفعنى إلى هذا التفكير إدراكى بأهمية هذه الفئة وضخامة أعدادها وتنوع المهارات والكفاءات من المنتمين إليها، ومن العار أن تبقى مشتتة الجهود برغم هذه الإمكانيات الهائلة التى يملكها أهلها والتى لو توحدت لقلبت الموازين فى عالم المضاربات العقارية، ولأرعبت الشركات التى تتاجر بهذه الأزمة ولجعلت الباحثين عن سكن قوة كبرى لن تكتفى بالبحث عن حلول لأزمتها السكنية وإنما ستحقق حضورها الفاعل فى مجالات الفكر والاقتصاد والسياسة، بحيث تسخر العلماء والأدباء والشعراء لخدمة أهدافها وتأليف الكتب والبحوث عن تاريخها والقصائد والملاحم والمسرحيات التى تشيد بنضال أهلها وترغم الاقتصاديين على تغيير أساليبهم الاقتصادية بما يتفق مع توجهات أبناء هذه الفئة، وتجعل السياسيين يذعنون لتعليماتها ويمتثلون لأوامرها لأنهم إذا لم يفعلوا ذلك أسقطتهم وانتخبت حكاماً آخرين يطيعونها، بفضل ما توفر لها من إمكانيات وما ينضوى تحت لوائها من بشر. وستكون جمعية عالمية لها فرع فى كل مدينة من مدن الدنيا، قادرة على أن تؤدى دوراً فى السياسة الدولية وخدمة السلام العالمى والوفاق بين الشعوب لما يربط عناصرها من وشائج تتجاوز الفوارق العرقية والعقائدية لتجعلهم أشبه بأمة واحدة يوحدها البحث عن سكن.

ولكن مشكلة هذه الجمعية العالمية أن وجودها سيكون مرهوناً بوجود أزمتها واستمرارها، لأنها ما أن تصبح قوة قادرة على فرض حل لمشاكلها وتوفير مساكن لأبناء فئتها حتى يبدأ وجودها فى الاختفاء. وهى محنة حقيقية تجعلنى أتردد كثيراً قبل أن أطالب رفاقى الباحثين عن سكن بإنشاء هذه الجمعية التى سيكون نجاحها سبباً فى اختفائها وموتها.

***

أعرف أناساً ينتسبون لأوساط تجارية لايطيقون البقاء فى بلدان إقامتهم

أكثر من أسبوع أو أسبوعين ولايعودون من رحلة حتى يبدأوا السعى للحصول على رحلة جديدة موفدين من مؤسساتهم التجارية أو مدعوين من قبل هذه المعارض الدولية التى تقام دوريًا فى كل مدن العالم. فهم شغوفون بالسفر والترحال إلى حد أنهم يفضلون قضاء أعمارهم متنقلين بين موانئ العالم الجوية لايحطون فوق الأرض حتى يعاودوا الطيران مرة أخرى.

وفى الحقيقة أن ما يفعلونه ليس سفراً بمعنى السفر الذى يتيح لنا رؤية العالم والالتقاء بتجارب البشر واكتساب الخبرات والمعارف وإرضاء فضولنا لمعرفة الحياة التى يعيشها الناس فى أركان الدنيا الأربعة ،والانتفاع بما نسمع ونشاهد ونقرأ ونحن نجوب هذه البلاد البعيدة، لأن هؤلاء المسافرين أبداً لايشاهدون شيئاً ولاينتفعون بشىء إذ إنهم لايقيمون فى المكان الذى يذهبون إليه ولايطيقون البقاء فيه لأكثر من يوم أو بعض يوم ويبددون أعمارهم أمام نقاط التفتيش وحرس الجمارك، إنه ليس ذلك السفر الذى يكون وسيلة لتحقيق غاية وإرضاء طموح وإطفاء شوق عارم للمعرفة والتجربة والمغامرة وإنما سفر لوجه السفر، سفر لاغاية له ولاهدف، فقد تحول بحد ذاته إلى هدف وغاية، وترى الواحد منهم يسعى للحصول على وظيفة تقتضى كثرة السفر، وإذا كان العمل يحتاج إلى رحلة كل شهرين أو ثلاثة أشهر فهو يتفنن فى اختلاق المناسبات ليجعل السفر مرة كل أسبوع إن استطاع إلى ذلك سبيلاً، وما أن يصل إلى محطته الأخيرة حتى يبدأ بمباشرة إجراءات العودة وتكون الحصيلة أن ما يقضيه داخل المطارات وعلى مقاعد الطائرات أضعاف الوقت الذى يقضيه فى البلاد التى يسافر إليها، ومع ذلك فهو سعيد بهذا الشقاء ويبذل أقصى مساعيه للمحافظة عليه فقد تحول هذا السفر إلى هوس يسيطر على عقله وقلبه ولايبتغى منه فكاكاً، وإذا كان

السفر وسيلة لاكتشاف الذات عندما نلتقى بصورتنا معكوسة فى مرايا الآخرين الذين يختلفون عنا طباعاً ومعيشة وفهماً للحياة، فهذا السفر غالباً ما يكون هروباً من الذات، وهذا ما يمكن أن نتكهن به كتفسير لهذا السلوك.

إن النفس البشرية أكثر تعقيداً من أن نحيط بكل أسرارها أو نفهم كل دوافعها، والناس يختلفون من ناحية التكوين النفسى باختلاف ملامحهم وبصمات أصابعهم، ولقد اخترع الإنسان الذى لايقوى على مواجهة نفسه عشرات الوسائل للهروب من هذه المواجهة، ولعل هذا النوع من السفر أكثرها فاعلية وأبلغها أثراً فى تحقيق هذه الغاية، ولا أدرى لماذا نهرب من مواجهة أنفسنا وكأن هناك أشباحاً بداخلنا تنتظر أى سانحة للانقضاض علينا، فكلنا بطريقة ما نخشى هذه المواجهة مع الذات، ونسعى لتأجيلها ما أمكننا ذلك.

إن بعضنا ممن تحول الأمر بالنسبة لهم إلى حالة مرضية، يهربون من مواجهة الذات إلى إدمان عادة سيئة ومدمرة كالقمار أو الخمر أو المخدرات، وبعضنا ممن أرادوا الاحتفاظ برؤوسهم سليمة يهربون منها بالاستغراق فى العمل ، وتراهم يفتعلون أعمالاً ينشغلون بها عن قضاء الإجازة أو عطلة الأسبوع، وبعضنا الآخر ممن هم أكثر ذكاء يهربون منها بالاستغراق فى السفر، وإذا كانت أغلب المهن تتيح فرصة للهروب من مواجهة الذات فإن مهنة الكتابة تفرض على صاحبها إذا أراد أن يكون صادقاً وأميناً مع مهنة القلم، مواجهة دائمة مع الذات ومراجعة يومية لأفكاره وقناعاته، ولعل السبب فى كثرة الأمراض النفسية والعصبية التى تصيب الكتاب والمفكرين ترجع إلى هذه المواجهة القاسية والدائمة مع الذات.

***

هناك دائماً أصل وصورة لكل إنسان. أصل يعرفه بعض من تربطهم به صلات وعلاقات حميمة وصورة هى التى يتداولها عنه الناس أو يسعى هو لإشاعتها فيما بينهم. وقد يبلغ هذا الإنسان درجة من الصدق فى تعامله مع الآخرين تجعل الصورة متطابقة مع الأصل، وقد يسعى بنفسه إلا أن يعطى صورة مخالفة ومناقضة لصورته الأصلية.

وإذا كان هذا القول يصدق مع الأشخاص العاديين فهو يصدق أكثر مع الشخصيات العامة من السياسيين وقادة الرأى. فهؤلاء الأشخاص العامون الذين لايراهم الناس إلا خطباء فى المحافل العامة أو متحدثين عبر الإذاعات والمقابلات الصحفية ولايعرفونهم إلا من خلال ما تقوله عنهم الوسائط الإعلامية أو تذكره الكتب التى تتناول حياتهم وأفكارهم، هؤلاء الأشخاص تنشأ لهم فى أذهان الناس صورة تقترب أو تبتعد عن الأصل ولكنها غالباً ما تحتفظ بدرجة من الاختلاف عنه.

وفى تعامل الناس مع هؤلاء الأشخاص العامّين يميلون عادة إلى وضعهم فى قوالب جاهزة فيسمون هذا رجعيّا والآخر تقدميّا ويسمونه يساريّا والآخر يمينيّا ويضعونه فى صف الصقور أو يضعونه فى صف الحمائم ويلبسونهم جميعاً أردية من صنعهم ويرسمون لهم صورة ثابتة دون اعتبار لما يحدث فى النفس البشرية من تفاعلات وما يطرأ على هذا الإنسان من حالات تتنوع فيها مواقفه بتنوع الظروف والملابسات وما يطرأ على أفكاره من تطور أو تغيير ودون اعتبار لمدى اختلافه عن بقية من يصنفونه معهم، من يساريين أو يمينيين، بل كثيراً ما نرى الناس يرسمون أكثر من صورة للشخص الواحد ففى حين يعتبره قسم من الرأى العام مثالاً للنزاهة والإخلاص والاجتهاد والوطنية إلى آخر ما فى القاموس من كلمات تدل على الخير والصلاح نجده فى نظر قسم آخر مثالاً لكل الخصال

المناقضة للخصال التى أضفاها عليه القسم الأول.

ويزودنا التاريخ بشواهد كثيرة عن درجة التناقض بين الأصل والصورة فى بعض الأحيان، فما أكثر الأشخاص القياديين ممن أدينوا فى فترة تاريخية ما، باعتبارهم مثالاً للسقوط والخيانة وتناقل الناس صورة بشعة عنهم فاستحقوا غضب معاصريهم وسخطهم ثم إذا بهم فى مرحلة أخرى يبرأون من التهمة التى أسندت إليهم ويعاد لهم اعتبارهم وتظهر لهم صورة جديدة نبيلة تخالف الصورة السابقة.

وشخصيات قيادية أخرى عقدت لها ألوية المجد والبطولة ثم اتضح بعد مرور الأعوام أنها ارتكبت من المخازى ما يورثها الخزى والعار.

وإذا كان بعض هؤلاء الأشخاص العامين يتحملون مسئولية الصورة المخالفة لحقيقتهم التى يتلقاها الناس لأنهم يمالئون أحياناً الرأى العام ويسعون لشراء الشهرة الشعبية لتحقيق الفوز والنجاح حتى لو أدى الأمر إلى ارتداء الأقنعة والظهور بمظهر مخالف لشخصيتهم إرضاء للآخرين، فإن هناك حالات أخرى يتطوع فيها الناس أنفسهم لإضفاء صفات خارقة على شخص ما كما حدث مع «نهرو» عندما وجد بعض الأوساط الشعبية الهندوسية ترى فيه تجسيداً لرموز ومعان دينية مقدسة وتسعى لتأليهه، فحارب هذا الاتجاه حتى قضى عليه.

وهذا يحدث فى العلاقات الخاصة أيضاً عندما نجد الحبيب يضفى وهو فى ذروة الحب أوصافاً على حبيبته تمنعه من أن يراها على حقيقتها إلا بعد انتهاء هذه الفورة العاطفية الجامحة.

وإذا انتقلنا من الشخصيات العامة والخاصة إلى الامم والشعوب فسنجد أننا كثيراً ما نلتقى بصورة يتداولها الناس عن شعب ما تختلف عن صورته الحقيقية عندما نزوره فى بلاده ونلتقى بأهله ونتعرف عليه عن

قرب. ولاأجد فى هـذا السبيل مثالاً أكـثر وضوحاً من الصـورة التى تسعى أجـهزة الإعـلام الغربيـة والدائرة فى فلك الصـهيـونية لإلصـاقهـا بالمواطن العـربى. فقـد دأبت هذه الأوساط الإعـلاميـة من صحف وإذاعـات مرئيـة وأفلام تنتجـها الشركات الصهـيونية على تقديم العربى فى صـورة مشوهة ممسوخة وغـرسها فى أذهان الشعـوب الأخرى. ويتحول العـربى الذى كان على مـدى مـئات السـنين وحتى عـصـرنا الحـاضر ضـحـيـة لعنف الدول الاستعمارية وإرهابها وهمجيتها ثم ربيبتها الصهيونية إلى الرجل الإرهابى، المتوحش، المتخلف، الذى لايؤمن إلا بالعنف ولايعرف إلا الرغبة فى تدمير العالم. صورة مناقضـة لصورة الإنسان العربى ببساطته وأصـالته وحضارته ستجـد على مدى الايام من يصدقها إذا لم نسـتنفر كل مؤسساتنا السيـاسية والفكرية والثـقافيـة والإعلامـية لتقـديم الوجه الحـضارى لبلادنـا وتعريف الشعوب الأخرى بالصورة الحقيقية لأبناء أمتنا.

***

لاشك أن البطالة التى وصلت إلى أرقـام قيـاسيـة تمثل الآن أكبـر العلل الاقتـصاديـة التى أصابت مـعظم البلاد الغـربية. ولذلك فـقد صـارت هذه المشكلة همّا أساسيًا لكل حكومة من حكومـات هذه الدول. وقضية رئيسية تتـبارى الأحـزاب فى وضع البـرامج للتـغلب عليـهـا. وبرغم خطورة هذه الظاهرة التى فشلت كل برامج الإصـلاح الاقتصادى فى علاجـها وبرغم ما يترتب عليهـا من آثار سلبية على المجتـمع مثل ارتفاع معـدلات الجريمة فى عواصم الغـرب الكبرى، فـإن ما يقوله بعض المـعلقين السيـاسيـين بإذاعتنا وصحـافتنا من أنها عـلامة انهيار وتدهور هذه المجتـمعـات قول مبالغ فـيه، ولابد من فهم هذه المجتمعات فهماً صحـيحاً حتى نستطيع التعامل معها من مـوقع المعرفـة والتحليل وليـس من موقع المبـالغة وخـداع الذات، لأن هذه

البطالة فى حقيقتها إنما هى إحدى المشاكل الناتجة عن النمو والتقدم، ويجب أن نأخذ فى الحساب أيضاً أن هؤلاء العاطلين إنما هم مجموع القوى المؤهلة للعمل من نساء ورجال، وليسوا رجالاً فقط كما يذهب فى أذهاننا عندما نقيسهم بمقاييس المجتمعات التى ننتسب إليها وماتزال تعانى من امتناع مايقرب من نصف قواها المنتجة عن العمل بسبب الأوضاع المتخلفة التى تعيشها المرأة، وهى حسبة قد تجعلنا نظهر أكثر ابتلاء بالبطالة من هذه المجتمعات.

ومن ناحية أخرى فإن هذه البطالة لم تكن بسبب الكساد الاقتصادى كما كان يحدث فى مراحل سابقة، ولم تكن على حساب انخفاض نسبة الإنتاج، إنما جاءت نتيجة لهذه الثورة العلمية فى مجال العقل الآلى والتوسع فى استخدامه توسعاً هائلاً إلى درجة أن بعض المؤسسات تدفع مبالغ طائلة للعمال الذين تم تسريحهم توازى ما كانت ستدفعه لهم لو استمرت فى استخدامهم وذلك مقابل أن تسمح لها الاتحادات بإدخال العقل الآلى كبديل لهؤلاء العمال، كما حدث مع بعض المؤسسات الصحفية الشهيرة فى بريطانيا.

وبرغم أن هؤلاء العمال يتقاضون منحاً من الدولة أو منحاً من المؤسسات التى استغنت عن خدماتهم كما يتمتعون بمجانية التعليم والعلاج وتسهيلات أخرى فى السكن والخدمات العامة إلا أن وجودهم دون عمل يشكل قضية أساسية من القضايا التى يدور حولها النقاش وتجعلها البرامج الانتخابية محوراً للأحزاب المتنافسة على السلطة.

لأن هذا العامل أو المهندس أو الموظف الإدارى الذى انضم إلى طوابير العاطلين لايريد أن يكتفى بالحد الأدنى من المعيشة الذى تؤمنه له الدولة وإنما يريد عملاً يسعى من خلاله لتطوير مستواه المعيشى وإثبات مهاراته

والارتفاع بها وتحقيق وجوده الفاعل فى الحياة لامجرد مواطن زائد عن الحاجة عرضة لشتى الأمراض النفسية والعصبية.

إن استيعاب هؤلاء العاطلين فى دورة العمل والمشاركة والإنتاج إنما تمليه ضرورة إنسانية قبل أن تمليه ضرورة اقتصادية لأن اقتصاد هذه البلاد لايشكو أى ضعف بل هم يكثرون من الحديث عما يسمونه «المعجزة الاقتصادية» كوصف للحالة التى وصل إليها اقتصادهم.

وخلاصة القول : إننا نشغل أنفسنا كثيراً بمشاكل المجتمعات الأخرى ونبالغ فى تجسيمها ونحاول أن نحقق من ذلك تعويضاً نفسياً يبرر ما نحس به من قصور نحوها. إن أهم ما حققه الغرب هو أنه لايرمى بمشاكله تحت البساط ويدعى أنه لايراها كما نفعل نحن، وإنما يضع كل قضاياه فوق مناضد الفحص والتشريح ويبحث عن علاج لها. وقد آن لنا أن نتعلم منه هذا الدرس.

***

هناك قول ساخر يقول إن «المبادئ مكانها المعارضة»ومعنى ذلك أن هذا المعارض الذى عاش يرفع أبهى الشعارات ويطالب بتطبيق أكثر المبادئ شرفاً ونبلاً ويطعم أحلام الجماهير أقوالاً جميلة عن العدل والحرية والإخاء والمساواة، يمنيها بالأمن والعزة والرفاء إذا وصل - إلى الحكم، ما أن يحقق غرضه فى اعتلاء سدة الحكم ويبدأ فى التعامل مع معطيات الواقع حتى يكتشف أن المثل والمبادئ شىء آخر غير الواقع وحقائقه العارية من الوهم والخيال، وسوف ينشغل بمواجهة المشاكل التى يفرزها واقع الحكم والبحث عن أفكار عملية يضمن بها علاجاً لهذه المشاكل حتى لو اختلفت هذه الأفكار وهذه الحلول عن تلك المبادئ والشعارات التى كان ينادى بها وهو خارج دائرة الحكم.

وبرغم ما فى هذا القول من مبالغة تصل إلى حد السخرية المريرة فهو أيضاً يجسد حقيقة كثيراً ما نراها ماثلة أمام أعيننا، ولاأذكر الآن من هو ذلك الثائر الذى أبدى أسفه وحزنه لأنه ما أن تحقق حلم الجماهير بوصوله إلى السلطة حتى وجد نفسه يشرع أول مايشرع فى إنشاء جهاز للمخابرات يكون رقيباً على هذه الجماهير.

وما أكثر ما تعلقت أبصارنا بحكام يأتون إلى الحكم بأفكار جديدة جريئة وأهداف نبيلة عظيمة فنمنحهم حبنا وتأييدنا وما أن تمضى بضع سنوات، إن لم تكن بضعة أشهر حتى نكتشف أنهم أكثر بؤساً ووبالاً علينا من الحكام الذين سبقوهم، وليست الثورة الإيرانية إلا مثالاً على هذه الخيبة التى نحصدها مع كل تغيير يطرأ على الحكم.

وبرغم مضى مئات الأعوام على ظهور الأفكار الميكافيللية فقد ظل كتابا الأمير والمطارحات هما دستور الحياة السياسية فى عالمنا بما فى ذلك بلدان العالم المتقدم حين تعاملها مع شعوبنا وقضايانا.

فنحن نتابع بقلوب خافقة الانتخابات الفرنسية أو البريطانية أو الأمريكية أو التغييرات التى تطرأ على الحكم فى روسيا أو فى الصين بأمل أن نرى شيئاً جديداً ينبئ بتحول ينال هذه السياسات المجحفة فى حقنا ويفتح أفقاً جديدة ويتيح شيئاً من الإنصاف تجاه قضايانا، فإذا بهذا الذى يأتى سواء كان اشتراكيّا أو ليبراليّا، يساريّا أو يمينيّا يعامل قضايانا بالأسلوب ذاته ويستخدم المسطرة ذاتها التى استخدمها أسلافه إن لم يزد شططاً فى معاملتنا واستهتاراً بقضايانا ورغبة فى إلحاق الأذى بشعوبنا.

ولقد وجدت أن أفضل وسيلة لمعالجة حالات الإحباط التى تصيبنى نتيجة متابعتى لما يجرى من تغيير فى البلدان الكبيرة أن أصرف النظر عنها، وأنسى كل ما يحدث بها من تغيير، وأدير وجهى صوب بلدان أخرى

صغيرة وفقيرة هى التى صرت أبحث عنها فوق الخريطة وأختار أصغرها حجماً وأضعفها شأناً فى الحسابات الدولية مثل تلك النقاط الطافحة فوق مياه البحار والمحيطات بدءاً من برمودا إلى سيشيل، لأن متابعة أخبارها تمنحنى راحة أكبر وشعوراً أعظم بالسلامة والأمان. فأعرف أنه مهما كان حجم التغيير فيها كبيراً لن يستطيع أن ينالنى أو ينال القضايا التى تخصنى بأى ضرر أو أذى. ووجدت فى ذلك وسيلة تنجينى من مشاعر الإحباط والخيبة حين أتابع أخبار الدول الكبيرة.

وبطبيعة الحال فإن القول الذى يحكم بالنفى على المبادئ لكى تبقى دائماً خارج الحكم، لن يرغمنا على اعتبار كل المعارضين مستبدين تحت التمرين، أو اعتبار كل الحاكمين مهما أفسدوا أفضل حالاً من معارضيهم، فالصورة تحتمل درجات لونية كثيرة غير الأبيض والأسود، ولكن الإنسان يطمح إلى أن يرى شيئاً يناقض هذا القول ويرمى به إلى سلة المهملات، يطمح إلى أن يرى عالماً حقق هذا التوازن بين الواقع والمثال. إن عالمنا الذى صار قرية صغيرة بفضل الثورة العلمية فى مجال الاتصالات والمواصلات لم يعد يحتمل أساليب المغامرين الذين يتاجرون بالشعارات، ويعبثون بمقدرات الشعوب، لأن الخطر الذى يحيق بمكان ما من العالم، صار بإمكانه أن يهدد السلام فى العالم كله، والمشكلة الصغيرة التى تنفجر فى بقعة بأقصى أركان الكرة الأرضية، بإمكانها أن تصبح مشكلة كل شعوب العالم. ولذلك فإن العودة إلى الاحتكام للمبادئ والارتفاع بأساليب الحكم إلى مستوى المسئولية الأخلاقية التى تتفق مع ما حققناه من تطور فى مجالات العلوم والمعارف الإنسانية ستكون سبيلنا الوحيد إلى النجاة من الكارثة.

***

دأب الأطباء على إضافة جملة يقولونها لك بتجهم وخطورة بعد الانتهاء من كتابة الوصفة الطبية هى:

ـ «وما عليك الآن إلا أن تبتعد عن كل ما يسبب لك الانفعال والتوتر».

وهم لايقولونها لك عندما تأتى لتشكو أرقاً أو قلقاً أو كآبة أو مرضاً من أمراض النفس فقط، وإنما يقولونها حتى وأنت تأتى باحثاً عن دواء لمرض عضوى كالصداع أو اضطراب المعدة أو تشكو ألماً فى الأنف أو الأذن أو العينين أو الأسنان أو الحنجرة، فهى جملة صارت لازمة لأى زيارة طبية.

ـ ابتعد عن الانفعال والتوتر!

يقولها لك الواحد منهم وكأنها مهمة سهلة ويسيرة ولاتقتضى سوى أن تقرر شيئاً مثل هذا فيتحقق فى التو والحين. أو بإمكانك أن تصدر أمراً إلى جميع مذيعى نشرات الأخبار بأن يمتنعوا عن ذكر الأخبار المزعجة أثناء سماعك للمذياع أو وجودك أمام جهاز التلفاز وأن تصدر أمراً لكل الشوارع التى تعبرها من بيتك إلى عملك بأن تعلق الزينات وتقيم الأفراح والاحتفالات حين مرورك بها حتى يختفى من طريقك كل ما كنت تقابله من معارك ومشاكل وأكداس من القمامة والذوق الفاسد تسبب لك الضيق والإزعاج. وأن تصدر أمراً لكل السيارات والدراجات النارية بأن تمتنع عن المرور بالأحياء القريبة من بيتك لكى لاتثير بضجيجها أعصابك وتمنع عنك النوم، وأن تصدر أمراً آخر إلى جيرانك بأن يتخلصوا من أطفالهم وصبيانهم الذين يملأون الشارع صخباً وعنفاً.

ولعل هذا الطبيب يريدك أن تربط عصابة على عينيك، فلا ترى شيئاً وأن تضع صمغاً أو طيناً فى أذنيك، فلا تسمع شيئاً وأن تضع قيداً فى قدميك يمنعك من الحركة والتجوال لكى لاتصطدم بكتل الزحام أو تكون طرفاً فى «المارثوان» الذى يقيمه الناس صباح مساء، وأن تبحث عن غرفة

فوق سطح البيت تحيطها بعوازل الصوت وتقفل أبوابها وشبابيكها وتبقى مقيماً بها مدى العمر، فهذا هو السبيل الوحيد الذى ينجيك من التوتر والانفعال، أما إذا أردت أن تكون جزءاً من الحياة تذهب كعباد الله الآخرين إلى العمل وتقابل الناس وتجالسهم وتسمع وتقرأ وتشاهد ما يسمعونه ويقرأونه ويشاهدونه فإنه لانجاة لك من التوتر والانفعال حتى لو أقمت فى أبعد القرى عن الحضارة والعمران، أو حتى لو كنت تنتمى لأكثر شعوب العالم استقراراً وأمناً وسلاماً، فما بالك إذا كان هذا الطبيب يعرف أنك مواطن عربى وأن الله قد اختبرك بمحنة المجىء إلى الدنيا فى هذه المرحلة التى لم ينصفها جميع الكتاب الذين أطلقوا عليها نعوت : الخطيرة، والعصيبة، والحرجة لأنها أشد هولاً وبؤساً من كل الأوصاف والنعوت.

إن حديث الطبيب فى مثل هذه الحالة يصبح ضرباً من العبث والهذيان، ولا سبيل إلى التفاهم معه إلا بأساليب الأحاجى الشعبية. وما أن تسمعه يقول:

ـ ابتعد عن التوتر والانفعال. حتى تبادره قائلاً:

ـ ابتعد أنت عنهما، وسوف أهديك مدينة لو أفلحت!!

***

الذين يتعرفون من قريب على مظاهر الحياة الاجتماعية فى بريطانيا سوف يشعرون بالأسف والأسى لما ألحقه التفكك العائلى من ضرر بالطاعنين فى السن من رجال ونساء ممن يواجهون صقيع الشيخوخة فى فراغ وعزلة بعد أن تمزقت الوشائج التى تربطهم بالأهل والأبناء.

وبرغم هذا الجفاف فى العلاقات العائلية فإن هناك تقليداً جميلاً حافظ عليه سكان الجزر البريطانية وهو الاحتفال بكل إنسان بلغ عمره مائة عام من مواطنيهم. تتولى السلطات المحلية إقامة حفل لصاحب العيد المئوى،

وتتولى ملكة بريطانيا رعاية الحفل بإرسال خطاب إلى المحتفى به أو مندوب لحضور الاحتفال ويدعى المواطنون للمشاركة فى هذا التكريم وتقديم التهنئة والهدايا لهذه المرأة أو لهذا الرجل الذى عاش قرناً كاملاً من الزمان. ولعل هذا التكريم يأتى تعويضاً عن أوجه التقصير والإهمال التى يلاقيها الطاعنون فى السن من فئات المجتمع الأخرى، ولكن يبقى مع ذلك تقليداً جميلاً يؤكد عدداً من المعانى الإنسانية التى تحض على احترام الكبار وتسعى لوصل الروابط بين الأجيال وتعيد الاعتبار لقيم الوفاء التى صارت تضيع فى زحام هموم ومشاكل الحياة. ولاشك أن هناك بلاداً كثيرة أخرى تعتمد هذا التقليد وتعبر بشكل أو بآخر عن تكريمها الشعبى والرسمى لمثل هؤلاء المواطنين الذين بلغوا هذا العمر، إنها رسالة تقدير وامتنان تبعث بها الأجيال الجديدة إلى هذه الرموز التى تبقت من أجيال وأزمنة توارت وانتهت.

وبرغم أن تقدير الصغير للكبير يمثل أحد الأعمدة الأساسية فى ثقافتنا وتربيتنا العربية الإسلامية فإننى لم أسمع أو أقرأ شيئاً عن مثل هذا التكريم يحدث فى بلادنا العربية، ربما لأننا اكتفينا بدفء العلاقات العائلية وما توفره لهؤلاء الشيوخ من عطف وبر ورحمة عن التكريم الرسمى. وربما لأن قضايا التحول والبناء وهموم التنمية واللحاق بركب العالم المتقدم قد شغلت أجهزتنا الرسمية عن الالتفات لمثل هذه الجوانب الإنسانية الصغيرة، ومع ذلك فإننى أعتقد أن تكريماً يتجاوز احتفاء الأهل والأقارب ليجعل من هؤلاء الشيوخ محل اهتمام المجتمع بهيئاته الشعبية والرسمية سيكون تأكيداً لهذه القيم النابعة من تراثنا وتعزيزاً لروح التوادد والمحبة التى تربط بين أبناء مجتمعنا. إن هذا الاحتفال بقدر ما هو احتفال بتواصل الأجيال وتتابع الرسالة التى يسلمها جيل إلى جيل فهو احتفال بالحياة ونبضها المتجدد،

احتفال بالإنسان فى كدحه وعنائه وجده واجتهاده، إن هذا الإنسان الذى امتد به العمر حتى وصل مائة عام، عايش مختلف الأحداث والخطوب وحقق انتصاره على المشاكل والهموم والفواجع التى تعصف بحياة البشر إلى أن وصل هذه السن وقطع هذا الشوط وصمد فى الماراثون الإنسانى حتى بلغ هذا الرقم القياسى الذى قدره مائة عام. إن من يصل إلى هذه السن فى وقتنا هذا معناه أنه عايش حربين عالميتين عصفتا بالمجتمع الإنسانى كله واجتاز ما رافقهما من محن وكوارث اقتصادية وطبيعية وما جاء بعدهما من فتن وحروب صغيرة، فالاحتفال به احتفال بانتصار الحياة على كل عوامل الموت والعقم والفناء. إنه احتفال يشمل كل أولئك الآباء والأجداد الذين عمروا لنا هذه الديار وأشادوا بيوتاً نسكنها وأشجاراً نأكل من ثمارها وحرروا البلاد من غزاة كانوا يستعمرون أرضها، فوجب الاعتراف بفضلهم وتكريمهم من خلال هؤلاء الرجال والنساء الذين تخلفوا قليلاً عن ركبهم وبقوا لحظات فى صحبتنا بعد أن رحل ذلك العالم الذى ينتمون إليه.

***

كلما زرت إحدى المدن الكبيرة التى تزهو بتقدمها وتطور اقتصادها وصلابة بنيتها الاجتماعية التى ضمنت لأهلها الأمن والرخاء، أثارنى ذلك المشهد الذى نلتقى به منذ أول يوم لوصولنا والذى نراه عند ذهابنا عبر الأنفاق إلى محطات القطار، أو عند مرورنا بالشوارع الخلفية التى تضربها الأمطار والرياح ملازما لأبواب الحوانيت والحانات، مشهد نساء ورجال بعضهم فى مقتبل العمر، يتكومون فوق الأرض وتحت الأقواس يلتحفون بأوراق الصحف القديمة وتفوح منهم رائحة البؤس والشقاء وقد تحولوا إلى حطام بشرى.

مشهد برغم أنني أراه عاماً وراء عام إلا أنه ظل مصدراً للحيرة والدهشة يثير في الذهن شتى التساؤلات. إذ من السهل أن تجد تفسيراً لمثل هذا المشهد لو أنك التقيت به في كالكاتا أو بومباي أو كامبالا أو إحدى مدن الفقر والمجاعات والحروب الأهلية، أما أن تلتقي به في عواصم العالم والثراء التي تفخر أنظمتها الاجتماعية والسياسية المتطورة بأنها تمجد الإنسان وتصون كرامته وتقدس حريته وحقوقه، فإن الأمر سيظل مصدراً للدهشة والاستغراب.

وهو ليس مشهداً نادراً نلتقي به مرة ولانلتقي به مرة أخرى فهو يقابلك في كل مكان تذهب إليه ليؤكد أن عدد هؤلاء الناس الذين أضحوا حطاماً بشريًا يبلغ رقماً كبيراً ويشكل ظاهرة تلفت نظر كل إنسان. وهم ليسوا من أتباع الدعاوى الفلسفية التي صنعت «الكولوشار» في فرنسا وصنعت في بقية الدول الغربية تقليعات «الهيبيين» أو «البانكس» أو «أبناء الطبيعة» أو غيرهم من المتمردين الذين ينفرون من الطقوس الرسمية ويعيشون بعيداً عن الارتباطات الوظيفية العائلية ويمتنعون عن العمل بالمؤسسات التقليدية التي يعتبرونها مسخاً لشخصية الإنسان، فتلك الدعاوى يمكن فهمها كما يمكن فهم أتباعها وأتباع دعاوى أخرى تشبهها وإن اتخذت منحى دينيًا مثل أتباع «كريشنا» وأتباع «مونى» فهؤلاء حتى وإن مارسوا اختياراً يختلف عن اختيارات المجتمع الذي ينتمون إليه يتدبرون لأنفسهم عملاً بإحدى المزارع أو المنتجعات ويحتفظون بمستوى معيشي لايفقدهم كرامتهم. إن حالهم يختلف عن حال هذه الأكوام من العظام التي انسلخت انسلاخاً كاملاً عن الحياة التي تليق بالبشر. فهل هؤلاء أيضاً يمارسون اختياراً حرًا يعشق الموت برداً تحت الأنفاق والقناطر؟

إن ما يبطل هذا القول هو أن جميع هذه الكائنات التي كانت رجالاً

ونساء، تعانى من أمراض الإدمان، ولا أدرى كيف يجدون وسيلة للحصول على الكحول أو المخدرات التى يدمنونها. إنهم يلتقطون قرشاً من هنا وقرشاً من هناك يضمن لهم سمّا رخيصاً يدمرون به أنفسهم. فهم إذن كائنات مريضة لحق نفوسها عطب وتشويه لاشفاء منه. إنهم ضحايا خطأ فى النسيج الاجتماعى الذى صنع شبكة معقدة من العلاقات ضمنت الأمن والرخاء لأغلبية الناس ورمت جانباً ببعض الزائدين عن الحاجة. إن هؤلاء البؤساء الذين نراهم يلتحفون الصحف فى ليالى الشتاء ليسوا إلا الرأس الطافح من جبل الجليد الأسود المدفون تحت الماء. فلا شك أن البؤس الأسود يطال أناساً آخرين لانراهم ولكننا نسمع بأخبارهم عندما يموتون برداً فى ديارهم نتيجة افتقارهم إلى مبلغ يشترون به وقوداً، وهو يدل على أن هذه المجتمعات برغم ما حققته من تطور ونماء وما تتمتع به من خير ورخاء ماتزال تعانى خللاً فى تكوينها وبنيتها، وإن الثوب الذى يبدو زاهياً وبراقاً يخبئ تحت بريقه ولمعانه الكثير من الثقوب وبقع الوحل السوداء.

***

الذى جاء زائراً إلى مدينة غربية مثل العاصمة البريطانية أثناء أزمة الخليج، لا شك أنه فوجئ بحجم الاهتمام الذى كان يمنحه لها الرأى العام ، فأحداث الأزمة وأحاديثها كانت تهيمن على حياة جميع الناس، وتحتل الجزء الأكبر من الوقت المخصص للأخبار والبرامج السياسية فى الإذاعات المرئية والمسموعة، وتملأ أعمدة الصحف والمجلات، بل إن هذه الأحداث صارت محوراً أساسيّا من محاور الأحاديث الخاصة فى البيوت والشوارع والمنتديات، وكأن هؤلاء الناس معنيون بالقضية مثلهم مثل أهل المنطقة الذين يعيشون فى قلب الأحداث. ولم ألجأ إلى القراءة التآمرية التى تفسر هذا الاهتمام بأنه جزء من خطة مرسومة لتأليب الرأى العام ضدنا، لأن هذا

المواطن البسيط الذى نلتقى به عاملاً بأحد الفنادق أو سائقاً لسيارة أجرة أو متسكعاً يستمع إلى خطباء الحدائق، ليس بالتأكيد شريكاً فيما يدور وراء كواليس الحكم، أو ضالعاً فى التآمر على شعوب العالم الأخرى، حتى إذا كان اهتمامه جاء نتيجة الضجة التى يثيرها من حوله السياسيون والإعلاميون، فإن هؤلاء السياسيين والإعلاميين أنفسهم، تتنوع آراؤهم وأفكارهم ومواقفهم من الأزمة بحسب تنوع توجهاتهم السياسية ومنطلقاتهم الفكرية، وانتماءاتهم الحزبية، ولذلك فإن لهذا المواطن أسبابه التى تجعله ينفعل ويتأثر ويراقب تطورات الأزمة يوماً بيوم، فهى أسباب تتصل بحياته وأمنه ورزقه، كما تتصل بأمن وسلامة العالم الذى يعيش فيه.

لقد رأى الناس نظاماً دولياً جديداً يولد هذه الأيام ويبشر بالانفراج فى العلاقات الدولية، والمعالجة السلمية للقضايا الخلافية، ونزع فتيل الحرب التى ستكون حرباً كونية، وتصفية نقاط التوتر ومصادر الخطر، وذلك بعد سنوات من الوقوف على حافة الهاوية نتيجة الصراع بين القوتين الأعظم. لقد اختفت لغة الحرب لتحل مكانها لغة الحوار ونزع السلاح وتدمير مخازن الشر من أسلحة جرثومية وكيماوية وذرية، ولكن أزمة الخليج جاءت بأحداثها العنيفة تعيد إلينا لغة الصراع المسلح واستخدام القوة فى تسوية النزاعات.

وفى أوج تلك الأزمة التى هددت الوطن العربى بمزيد من الانقسام والتمزق والحروب، كانت شاشات التلفاز تنقل مظاهر البهجة التى تغمر شوارع برلين ليلة الاحتفال بميلاد ألمانيا الموحدة، وظهور هذا العملاق السياسى والاقتصادى الجديد، مستفيداً من جو الانفراج الذى صار يحكم العلاقة بين المعسكر الشرقى والمعسكر الغربى. لقد جاء هذا النظام الدولى الجديد، يحمل حقائق جديدة كان بإمكانها أن تعطل دور الكيان الصهيونى

باعتباره كلب حراسة وقاعدة متقدمة على الحزام الذى يفصل بين معسكرى الشرق والغرب، وكان بإمكان البلاد العربية أن تسعى لتوظيف هذا النظام الدولى من أجل تحقيق تضامنها ووحدة صفوفها وخروجها إلى العالم قوة كبرى تعزز مسيرة السلام وتسهم فى البناء الحضارى وتباشر دورها الفاعل فوق الخارطة السياسية لعالمنا، كما حدث فى البلاد الألمانية وبلاد أخرى فى طريقها إلى الاستفادة من هذه الفرصة التاريخية، ولكننا للأسف الشديد لانجيد قراءة التاريخ ولاندرك الإمكانيات المتاحة إلا بعد ضياعها.

إن العالم لم يكن ليهتم كل هذا الاهتمام بما يحدث فى بلادنا، والمواطن البسيط فى شمال العالم وجنوبه، وشرقه وغربه، لم يكن ليجعل من هذه الاحداث قوتاً يوميّا لسمعه وبصره وعقله وقلبه، إلا لأنه يدرك مدى أهمية بلادنا وقيمة موقعها ومواردها وإمكانياتها، فمتى نعرف قيمة أنفسنا؟

***

مهما تعددت زياراتك إلى مدينة ما أو منطقة من مناطق الدنيا، فإنه يبقى للزيارة الأولى، والانطباع الأول، أثر فى الذاكرة لايمحى، وسيظل هذا الانطباع الأول يلون نظرتك إلى ذلك المكان حتى بعد أن تكتمل معرفتك به وتتوثق صلتك بأهله وتتعمق خبرتك بجوانب الحياة فيه.

وقد ترتبط زيارتك الأولى بذكرى حقيبة ضائعة، أو عبارة جارحة قالها دركى عصبى المزاج وسقطت فى أذنك فإذا بتلك الذكرى تنشر غشاوة فوق عينيك تحجب عنك الكثير من جوانب البهجة والجمال.

وقد يمضى زمن طويل قبل أن تزول تلك الغشاوة وتهتدى إلى جمال ذلك المكان.

وما أكثر ما نلتقى فى مكان واحد باثنين من أصحابنا فإذا بأحدهما يقول فى معرض الحديث عن مدينة روما مثلاً، بأنه كلما ازداد معرفة بها ازداد

نفوراً منهـا، بينما يؤكد الصديق الـثانى بأنه كلما حبـاه الحظ بزيارتها ازداد عشقاً لها. وتتساءل عن سبب هذا التباين فى وجهات النظر وتبحث عما إذا كان ذلك يعكس تبايناً فى المستويات الثقـافية أو الجذور التربوية أو أنه جاء نتيجـة لاختلاف الميول والهـوايات ومجالات العمل، ولكنك تعـرف أنهما ينتميان إلى مـدينة واحدة، وأنهمـا أبناء مناهج دراسيـة واحدة، ومسـتوى معـيشى واحد وعـمر مـتقارب ومـجالات عمل مـتشابهـة، وكلاهمـا يقرأ قصص مورافيـا، ويشاهد أفلام فلليني ويحب فطائر البيتزا ويعـشق ابتسامة كلوديا كـاردينـالى. وتكتـشف أن السـبب فى هذا التبـايـن أو التنافـر فى وجهـات النظر يعود إلى أحداث صـغيرة أثناء الزيارة الأولى أسـهمت فى تكوين ذلك الانطبـاع الأساسى الذى ظل يعـيد إنتـاج نفسه فـى ذاكرة كل منهما.

قد لايصدق هذا القـول على كل الناس وقد لايتطابق مع كل الحالات، ولكنه صـدق معى فى مناسـبات كـثيـرة وجدت فيـها نفـسى أسيـر النظرة الأولى لأماكن تكررت زيارتى لهـا وتعمقت خبـرتى بأساليب الحياة فـيها، وخلاصة الـقول أن الأشياء تتلون بلون رؤانا وتكتـسب صورتها مما نضـيفه نحن عليـها، إنهـا كثـيـراً ما تكون مـرايا تعكس مـا فى نفوسنا وأن القـبح والجمال قبل أن نلتقى بهما فى الطبيـعة فهما فى عقل الإنسان الذى بإمكانه إذا شاء أن يحيل الجمال قبحاً ويحيل القبح جمالاً وقديماً قالوا: كن جميلاً ..

***

ترى مـاذا سـيكون شعـورك عندمـا تتلقى بطـاقة من بطـاقات الأفـراح تدعوك لحضور حفل طلاق يقيمه صديق لك وزوجته؟

هذا مـا يمكن أن يحـدث لك لو كنت مـواطناً من مـواطنى مـدينة

برمنجهام ببريطانيا حيث تبدأ الآن هذه التقليعة الجديدة التى تدعو إليها امرأة مطلقة صنعت لنفسها اسماً تتناقله أعمدة الحوادث الاجتماعية فى الصحف البريطانية، هى شيلا ديفنر.

لقد تضاءلت هيمنة التقاليد القديمة، التى كانت تحكم العلاقات الاجتماعية وتضع الطلاق فى قائمة المحظورات التى لايباح الاقتراب منها إلا عند الضرورة القصوى، ولحق التغيير قوانين الأحوال الشخصية التى ظلت تعكس وتواكب ما عرفته المجتمعات الغربية من تحولات وانقلابات اجتماعية، كما تغيرت النظرة الدينية المتزمتة التى كانت سائدة لعصور طويلة برغم أن أثرها مازال سارياً فى طقوس الزواج الذى يتم فى الكنيسة حيث مازال العروسان يتبادلان المواثيق والعهود على الوفاء والإخلاص واحترام الرابطة التى تجمع بينهمافى السراء والضراء «حتى يفرق بينهما الموت»، وخاضت جمعيات الحقوق المدنية معارك كثيرة ضد مؤسسات سياسية ودينية تتولى حراسة التقاليد القديمة حتى تحقق لهذه الجمعيات ما أرادت بشأن تسهيل إجراءات الطلاق وكسبت معاركها الأخيرة فى روما نفسهاحيث دولة الفاتيكان وسطوة التقاليد الكاثوليكية التى تعتبر الطلاق من المحرمات.

وبرغم حرية الاختيار التى صار يتيحها المجتمع فى العقود الأخيرة، مقارنة بالمراحل القديمة بما فيها العصر الفيكتورى الذى امتد تأثيره فى بريطانيا إلى ما قبل الحرب العالمية الأخيرة والذى كان متزمتاً يحبذ الطريقة التقليدية فى الزواج حيث تعقد أواصر المصاهرة داخل الطبقة الاجتماعية الواحدة، وحيث فرص الاختيار أقل مما هى عليه الآن، أقول برغم الظروف الجديدة التى تتيح الاختيار وبناء الأسرة على أسس أكثر متانة فإن الطلاق لم يكن أكثر شيوعاً مما هو عليه الآن.

ولاشك أن بعض أسباب الطلاق يتصل بالثورة التى تحققت على مستوى تنظيم الأسرة وتحديد النسل، فكثير من الأزواج فى الغرب يجعلون من السنوات الأولى للزواج سنوات اختيار وتجربة يمتنعون فيها عن إنجاب الأطفال، وعندما يفكرون فى فك هذا الارتباط يفكونه دون تحمل مسئوليات كبيرة.

وطالما أن هذا الزواج الذى انتهى الآن إلى طلاق، قد بدأ بالموسيقى والرقص والغناء فلماذا ينتهى بالدموع والبكاء، لماذا لا ينتهى كما بدأ بطريقة حضارية وحفل يدعى إليه الأصدقاء؟

***

ثبت بما لايدع مجالاً للشك أن السيجارة شىء قادر على القتل.

هذه اللفافة الصغيرة البيضاء ذات المظهر الوادع البرىء التى بدأ بعضنا تدخينها منذ أيام المراهقة تسلية، ولعباً، ومحاكاة للرجال الكبار، صار العلم يكتشف لها من جوانب الشر ما يوازى الآفات الأخرى التى تؤدى بضحاياها إلى الإدمان والهلوسة وأمراض العقل.

إن الخطر الذى تمثله السيجارة صار الآن هاجساً يسيطر على كثير من أجهزة التوعية والإرشاد فى المجتمعات الغربية إلى حد أن الحكومات لم تعد تكتفى بوضع التحذير المعروف الذى يشير إلى أمراض التدخين وإنما صار هذا التحذير أكثر صراحة وتحديداً فهو يقول بلهجة خالية من التزويق بأن التدخين سبب أساسى للإصابة بسرطان الرئة والذبحة الصدرية، وسيضيفون إلى هذا التحذير اكتشافاً طبيّا جديداً يقول بأن التدخين سبب من أسباب الجلطة التى تصيب أوعية الرأس.

وأنا لاأقول هذا الكلام استفزازاً للقارئ الذى قد تكون قراءة الصحيفة مع سيجارة وفنجان قهوة أو شاى طقسًا من الطقوس التى يبدأ بها يومه،

فقد كانت هذه عادتى التى لم أكن أتصور أننى أستطيع أن أتخلى عنها تحت أى تهديد، ولذلك فإننى أقول هذا الكلام استفزازاً لنفسى باعتبارى واحداً من ضحايا هذه المخلوقة الصغيرة الماكرة القاتلة التى ترتدى ثوبها الأبيض وتحط بين أصابعى وكأنها ملاك هابط من السماء.

لقد حاولت وبعد أكثر من عشرين عاماً أن أقاوم سحرها وأتخلص من شباكها وأفك ارتباطى بها، وبرغم نجاحى فى الإقلاع عنها فقد ظللت دائم الحنين إليها أكسر صيامى عن تدخينها مرة أو مرتين كل أسبوع لأرتشف رحيقها فى حرج وخوف ولهفة وكأننى عاشق يتسلل تحت جنح الظلام لملاقاة حبيبته.

لقد وعت بعض المجتمعات خطورة هذه الآفة فأدارت الحملات الضارية ضدها وسعت لتحذير الناس من أهوالها، وأعلنت منظمة الصحة العالمية حربها ضد التدخين باعتباره يمثل تهديداً لحياة الإنسان ولكن السيجارة ستظل برغم ذلك كله تبسط نفوذها على حياتنا وتطيح بضحاياها من أبناء جنسنا ليس فقط لأنها ذات مظهر ساحر جذاب يخفى طبيعتها القاتلة ولكن لأنها أصبحت صناعة ضخمة يتوقف على استمرارها فى الوجود استمرار آلاف المؤسسات المالية التى تحكم عالمنا.

إن السيجارة مثلها مثل أسلحة الفتك والدمار جزء من هذه الحلقة الشريرة التى تبدأ بإنسان يريد تحقيق مصلحته بايذاء وتدمير إنسان أخر، ناسياً أنه عندما يفعل ذلك إنما يشارك فى إيذاء وتدمير نفسه أيضاً.

***

يسمونه فى الأوساط الأكاديمية الطالب الأبدى.

وهو نوع من البشر يرفض أن يغادر فصول الدراسة إلى العالم المفتوح حيث يشتد الصراع بين الناس الذين يتزاحمون على أبواب العمل

ويتنافسون على تحقيق النجاح ويباشرون من خلال ذلك الصراع والتنافس والتزاحم مهمات الإنتاج والبناء.

ولابد لمن ينتسب لجامعات الغرب أن يلتقى بمثل هؤلاء الطلاب الأبديين من أبناء البلاد. إن الواحد منهم غالباً ما يعيش حياة بائسة ومع ذلك فهو يحبها ولايرغب عنها بديلاً، إنه نوع من الاختيار يجعله يتحمل المتاعب مقابل الابتعاد عن مسئوليات الحياة، ولكى يتيح لنفسه البقاء دون إزعاج أو تصادم مع قرارات الجامعة لأكبر عدد من السنين فهو يسجل نفسه طالباً غير متفرغ لتحضير رسالة الدكتوراه، وهو إن لم يستطع أن يعيش على دخل أمه التى تعمل شرطية مرور أو على مشاركتها فى معاشها التقاعدى إذا وصلت سن التقاعد، تفنن فى الحصول على منح من بعض المؤسسات التى ترعى أمثاله من الطلبة البائسين، وتنتهى سنوات المنحة فيتدبر لنفسه عملاً مؤقتاً بأحد المصانع إلى أن يجد قريباً له يتبرع بمساعدة صغيرة تعينه على حياة الكفاف التى ارتضاها لنفسه، ولكن الأمر يختلف كثيراً عندما يتعلق الأمر بالطلاب العرب الذين اختاروا قضاء ما تبقى من أعمارهم طلاباً، فالبقاء طالباً لمن جاء موفداً فى بعثة حكومية هو أضمن سبيل للحصول على رزق ساقه الله دون جهد أو عناء.

وأغلب هؤلاء الطلاب ينتسبون إلى مدرسة أو جامعة ما، وما أن تنتهى مدتهم بها دون تحقيق نتيجة حتى ينتقلون إلى مدينة أخرى ومدرسة أخرى وتمضى السنوات ويمضى العمر لا الطالب يتوقف عن الأخذ ولا الحكومة تتوقف عن العطاء.

أغلب هؤلاء الطلاب يأتون للدراسة عامين أو ثلاثة أعوام للحصول على دبلوم أو تحضير شهادة عالية لكنهم يمضون عشرين أو ثلاثين عاماً قبل الحصول على هذا الدبلوم أو هذه الشهادة.

ولقد التقيت ذات مرة بموفد أرسلته إدارة أحد الموانئ للتدريب على طلاء المواسير لكى تقاوم رطوبة وملوحة ماء البحر وذلك لمدة عام بإحدى المدن الساحلية البريطانية، التقيت به وكان قد أمضى اثنين وعشرين عاماً فى هذه البعثة، كان مازال يتقاضى راتباً شهريًا ومصاريف إضافية لشراء احتياجاته من الكتب والمراجع ويتلقى هو وأسرته علاجاً مجانيًا على حساب الدولة التى أوفدته. التقيته وهو مازال يواصل التدريب على طلاء المواسير ويجددون له البعثة عاماً بعد عام. اندهشت فى البداية لغفلة الحكومة التى تصرف على عامل طلاء ما يمكن أن يبنى ميناء جديداً، ثم سرعان مازال اندهاشى عندما عرفت منه أن له خالاً يشتغل خفيراً فى ذات الميناء الذى أوفده فى هذه البعثة، فأنا أعرف بمثل ما يعرف القراء مدى سطوة ونفوذ الخفراء فى مدن وحواضر العالم العربى.